أصحاب الامتياز
خير الدين البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Directeur : BAHIJ OSMAN
Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٣/٠١

AL-ĀDĀB : REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. : 23 - 01

العدد الثاني
شباط (فبراير) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 2 - Février 1954
2ème Année

الإبداعُ الذي نحتاج إليه

بقلم عبد الله عبد الدائم

لا مجال لتعداد العوامل التي تدعو الى نفاد القدرة على الابداع . ولا يهمنا هنا ان نقوم ببحث نفسي تحليلي للابداع ومقوماته . وما نريده هو ان نمسّ المشكلة واقعياً ، لا على نحو مجرّد ، فنبحث في مقومات الابداع في المرحلة التي تجتازها بلادنا العربية اليوم . ذلك ان جميع العوامل التي تدعو الى غنى الابداع او فقره ، مردّها في نهاية الامر ، في نظرنا ، الى مبلغ القدرة على التكيّف مع الاوضاع الجديدة التي يجتازها المجتمع. **والمبدع هو من استطاع ان يأتلف مع الجو الجديد الذي يمرّ به مجتمعه ، ويدرك ما في هواء المجتمع من نوازع وتطلعات وحاجات يجيب هو عليها ، فيخلق بذلك معاني جديرة بأن تسمى جديدة لأن فيها عبق التطور الاجتماعي الجديد**

أوليس الابداع هو الحرية عينها ؟ أفلا يعني ان يتحرر الكاتب والمفكر من اساليب في التفكير هي التي تعلّمها واعتادها ، كانت تلبي حاجة فترة مضت ومرحلة تجاوزها المجتمع ، وغدت بعيدة عن ان تفي بمتطلبات الوضع الاجتماعي الجديد ؟ أليس الجدب في المحافظة على أساليب يلذّها المفكر أحياناً وينساق في منحدرها السهل ومنزلقها الممهّد ، لانه ألفها وطالت عشرته لها ، فغدا اسيرها وكانت لفكره سداً يحول بينه وبين الانطلاق الحر ؟

إلى ما يقرب من هذا يذهب ابن رشيق في عمدته حين يقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى ما كان قبله » .

والى مثله ايضاً يذهب عبدالكريم بن ابراهيم في حديثه عن القديم والجديد من الشعر :

« قد تختلف المقامات والازمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في غيره ، ويستحسن عند أهل بلدٍ ما ما لا يستحسن عند اهل غيره . ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه . »

لقد عرفوا الذكاء بانه القدرة على التكيّف مع المواقف الجديدة ، وكلنا يدرك ان الشخص الذكي هو الذي لا نجد لديه الصلابة والجمود اللذين نجدهما لدى الكائن الجامد ، وانما نجد لديه تلك المرونة وتلك القدرة على التغيّر التي تسم الحياة في جوهرها . حتى ان بعض العلماء يفسرون الصلة بين الذكاء وكثرة تلافيف الدماغ بان المؤثر الذي يقع على الانسان ذي التلافيف الدماغية الكثيرة ، لا يجتاز عدداً من الطرق قليلاً ، وانما يجتاز التواءات ومنعطفات عديدة تجعل من استجاباته استجابات فيها مجال لحلول كثيرة غنية . ويذهب برغسون الى أبعد من هذا ، فيفسر ظاهرة الضحك نفسها على أساس هذه المرونة والليونة في الاستجابة. ويرى ان ما يضحكنا هو ان نرى الكائن الحيّ المرن يتلبس بمظهر الكائن الجامد الارن ويفقد المرونة التي هي جوهره .

وتتجلى لنا فكرة برغسون هذه واضحة ، وتتجلى لنا الصلة عامة بين الحياة والمرونة والتكيّف إذا حاولنا ان نفهم معه لمَ يضحك احدنا من وجه قبيح مشوّه ، او من شخص احدب او .. اننا إذ نضحك من هؤلاء نضحك من تصلب ايضاً حلّ فيهم محل المرونة ، كأنما يخيل الينا انهم قصدوا الى وضعهم الجسدي قصداً ، فحادوا عن المرونة ووقعوا في تجمد الهيئة .

« ألا يبدو لكم الاحدب كرجل ساءت وقفته ؟ فكأن ظهره قد تعود هذا الانحناء السيء وداوم على هذه العادة نتيجة عناد مادي ، اي نتيجة تصلب .. حاولوا ان تنظروا بالاعين فقط ، لا تفكرون ولا تناقشون ، وأمحوا ما اكتسبتموه ، وابحثوا عن الانطباع البسيط المباشر الاول . ألا ترون حينئذ مشهداً من هذا النوع ؛ مشهد رجل أراد ان يتصلب على وضع ما ، وان يجمّد جسمه إن صح التعبير ؟ » :

قصُرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربّص ان يُصفعـــا
وكأنما صُفعت قفـــاه مرة واحسّ ثانية لهـا فتجمعا

ولن نعرض للامثلة الخصبة الكثيرة التي أوردها برغسون للتدليل على فكرته هذه ، فكرة رد المضحك الى كل ما حلت فيه صلابة المادة ، فجمُد حيث ينبغي اللين ، وتصلّب حيث تجب المرونة ...

وحسبنا اذا اردنا ان نزيد في اظهار هذه الصلة القائمة بين الحياة والمرونة ، بين الذكاء والتكيّف ، ان نذكّر باحوال الشذوذ والمرض النفسي وألا ننسى ان جميع الامراض النفسية قائمة على اساس هذا التصلّب في وظائف النفس ، على أفكار ثابتة يقف عندها المريض فتسيطر على حياته كلها ، ويجدها أينما توجّه ويجدها مَن حوله في كل حركة من حركاته ... ومـــا الاوهام المسيطرة وما الهذيان وما الوهن Asthénie ومـــا البارانويا وما الفُصام Schizophrénie إلا حالات من التصلب في تيار النفس، تسيطر فيها على المريض رؤى وأفكار ونزعات لا يستطيع ردها ، وتفرض وجودها عليه ... وهل تعـــني « العقدة النفسية » غير هذا التصلب والتعقد والانجذاب الجامد الى محور لا يتجاوزه الانسان ؟ وهلا يُرجع « فرويد Freud » وصحبُه اكثر انواع الاضطرابات والمرض الى الوقوف عنـد مرحلة من التطور النفسي كان على الشخص ان يجاوزها، والى تثبت على اطوار من الحياة الجنسية والعاطفية يمر بها الانسان السليم ليرقى الى غيرها ، ويقف عندها المريض او يعود اليها ، مراوحاً في مكانه او متقدماً الى وراء ؟

إن جميع ما ذكرنا من أمثلة توضح اذاً قيام الصلة الوثيقة بين التكيّف والوضع السليم ، بين التكيف والذكاء ، بين التكيف والحياة ... فماء الحياة لا يعرف الركود والا غدا أسِناً وموطناً للأوباء ... والتوقف لا معنى له في لغة الحياة ، وكل توقف تراجع . والذكي من عرف ان يتكيف مع الظروف المتجددة ومع المواقف والمشكلات الطارئة ؛ والسليم السوي من جاوز كل طور الى ما يليه ، ولم يقف حيث ينبغي ان يسير ، ولم يتصلب حيث ينبغي ان يسيل .

واذا كان الابداع اقوى صور الذكاء وأرفع اشكال الحياة الدافقة ، فحريٌّ به اذاً ان يكون قدرة على التكيف مع متطلبات الحياة ، وحريّ بالمفكر المبدع ألا يقف عند انماط من التفكير تجاوزها المجتمع ، وألا يراوح في مكانه والركب سائر ، وألا يمشي القهقرى ، فعلة الكائن الجامد تشدّه الحياة إلى أمام فينجرّ الى وراء ، ويعدو المجتمع أمامه فينفر او يعتزل أو يتعصب .

إن الابداع كما قلنا أقوى تعبير عن الحرية .. إنه ابتعاد عن الأطر الجامدة ، عن السنن الجامد ، عن السنة والسكون .. إنه وثبة النفس فوق ذاتها وتحرر الذات من قيودها .. إنه ابتعاد عن الخوف ، مغامرة في عالم الجديد ، مسايرة للحياة في وثبتها التي لا تعرف الوجل ولا تخاف العقبات ..

« ما هذا يا نفسي ؟ إنه الحرية » ، هكذا قال كيركيجرد Kirkegaard متسائلا عن سر إبداعه .

إن الجيل المبدع هو الجيل الذي تحرر من رواسب الماضي وانطلق ينشد المستقبل في حرارة . والمفكر المبدع هو الذي تحرر من عاداته المستشرية فخطّ لنفسه عادات تساير ما بفوح في المجتمع من روح ناعم جديد ، بدلاً من أن يظل ثابتاً على افكار ذابلة ، كانت أزاهير ، ففقدت ضوعها وكادت تنتن.

★

وبعد ، ما هو هذا الابداع الجديد الذي يُنتظر من مفكر في بلادنا تنكب للجامد وانطلق مع الحي المتحرك ؟ وهل ما نجده في مجتمعنا العربي اليوم من مجالي الابداع يحقق هذا الابداع الذي عرّفناه ويجعل من مفكرينا أناساً جديرين بهذا الاسم ؟

هنالك طائفة من المفكرين ، غدت قليلة ، تفهم من الابداع ضرباً من الوحي الشخصي والالهام اللدّني الذي لا يغذيه اطلاع وزاد . وتعتقد ان الخلق يمكن ان يكون من عدم مناقضة المثل اللاتيني القائل « لا شيء من لا شيء ex nihilo nihili » . ومن بين هذه الطائفة أولئك الذين يعتقدون ان الأمة العربية تستطيع أن تبدع قبل أن تدرك وتعي ما جاء به غيرها ، وأن عليها ان تمتاح معاني الابتكار من ذاتها ومن خصائصها . ولئن كان وراء موقف هؤلاء رغبة مشكورة في الوصول إلى شيء قومي أصيل

وفي التحرر من عبودية الغرب ، فهم ينسون الحقيقة التي وقفنا ووقفنا عندها وهي ان الابداع ينبغي أن لا ينسى متطلبات الوضع الاجتماعي الجديد. كما أنهم خاطئون إذ يخيل إليهم ان في الاهتمام بتراث الغرب ، إذا اتصف هذا الاهتمام بالصفات التي سنبينها ، تخلياً عن الاصالة وانقياداً وخضوعاً ...

« ليس المبدع من يأتي بالمعجزات أو ينتظر هبوطها ، انه من تحرّر من قيود اسلوبه الذي ألفه ، وانطلق من اسار عاداته الفكرية المستشرية ، وصارع ذاته وأنانيته العقلية ، لينخرط في حياة امته ومجتمعه ، يقبس منها وحيه ، ويدرك من خلالها حقيقة المهمة التي تنتظره ، ومطالب المرحلة التاريخية التي عليه ان يحمل عبء قيادتها وتوجيهها . »

وهكذا نرى فريقاً من الكتاب يفكرون جاهلين كل شيء يتصل بالفكر العالمي ، ويعتقدون ان ما في عقولهم هو كل ما في العالم من أفكار ، وان ما عندهم من اجتهاد شخصي غير مزوّد باطلاع ومعرفة هو كل الابداع ، ويسلكون لهذا مسلكاً جريئاً جداً ، فيخوضون في كل بحث ويفكرون في كل مشكلة جاهلين بأصولها وما قيل فيها من أبحاث ، ظانين أنهم أول من يتعرض لها . ولهذا تراهم يهرفون بما لا يعرفون ويتجرأون على أكبر المشكلات فيجدون لها الحلول القاطعة في زعمهم .. إن الابداع لديهم ينقلب إلى تجاهل التجربة العالمية في كل ميدان ، وتوهم الأتيان بالجديد في مجالات قُتلت درساً وبحثاً .

وإلى جانب هذه الطائفة الأولى طائفة ثانية تشعر على العكس بالانسحاق أمام الفكر الغربي فترتمي في أحضانه . غير أن ارتماءها في أحضانه ارتماء فقير مجدب يقصّر عن فهم هذا الفكر الغربي ولا يصل إلى شأوه ويقتصر على نوع من التتلمذ أو ادعاء التتلمذ على استاذ قوي دون شك ، غير ان تلميذه لا يفهم منه الا فتاتاً قليلة .

وهذا الموقف الثاني كثير الذيوع ، وهو أكثر ذيوعاً من الموقف الاول . وهو ايضاً وليد العجز وليس من الابداع في شيء . إن صاحبه اشبه بمن يتكئ بجاره . فهو حين أجدب وأمحل يلتمس الخصب في التحدث عن خصب غيره دون ان يعرف هذا الخصب . وما يلبث حتى يظن بعد حين أن مجرد حديثه عن غنى الآخرين ، غنى الغرب ، يمنحه الغنى . بل قد يخيّل اليه أنه يشارك في إبداع هذا الذي يبدعه غيره . كمثل من يستمع الى عزف كبير فيحرّك يده أحياناً كأنما يريد ان يقلّد النغم الذي يُعجب به ويظن بهذا انه يشارك في إحداث النغم .

ويتجلى موقف هذه الطائفة خاصة في انهم حين يحاولون نقل فكر الغرب لا ينقلون إلا اجزاء متناثرة وأشلاء مقطّعة . فيقبسون من هنا وهناك ، ويقتبسون من هنا وهناك ، ويتلمظون ببعض النتف ، دون ان يدركوا النظرة الكلية الشاوية وراء هذا كله ، والمنازع العامة التي توجه هذا كله . إنهم لا يصعدون الى منبع الابداع ، ويكتفون بان يغرفوا من شطآنه الموصلة كدراً يحسبونه صفواً . ويصيبهم من وراء هذا كله غرورٌ أيما غرور ، فيحملون على تراثهم دون ان يفقهوا منه شيئاً ، ويدعون الى تراث غيرهم دون ان يفقهوا منه شيئاً ايضاً .

ونرى هذا الموقف جلياً لدى بعض الدائنين بمذاهب سياسية غربية . فتراهم ينقلون فتات المذاهب دون ان يفهموا منزعها ووظيفتها الحقيقية . ويوهمون الناس انهم يتبنون مذاهب ونظماً سياسية وحكومية أثبتت جدارتها لدى امم حديثة ، في حين انهم يختزمون هذه المذاهب والنظم ويقتطعون منها ما يفهمون أو ما يشاؤون ، ويدعونها تلتمس الحياة في بلادنا عرجاءَ شوهاء مقطعة الأوصال ، محرومة احياناً من جهازها التنفسي الأصلي بل من لحمها ودمها .

ولا يعنينا ان نستمر في هذا الحديث ، المكرور ايضاً ، عن موقفين من الابداع ، في صلته بالغرب . ويهمنا ان نذكر ان كلا الموقفين موقف متصلب أرن ، لا يراعي مطالب الوضع الجديد ، ولا يعرف ان يتحرر من العبودية التي تُفرض عليه ؛ وان كلا الحلين للمشكلة حلٌ سلبي متراجع ينبيء عن خوف منها وهلع ، ولا يواجهها في صراحة وإقدام .

ان الموقف السليم تجاه مشكلة الفكر الغربي ينبغي ان يكون دون شك ان نجعل من نقلنا لهذا الفكر الغربي إبداعاً

وأول شروط الابداع في مثل هذا المجال ان نفهم ما ننقل فهماً كلياً جامعاً ؛ أن لا نخلق من نتف ومُزَق نستوردها من الغرب كما نستورد زجاجات الويسكي مخلوقاً عجيباً ندعي انه مخلوق ، ولا يثير فينا إلا الضحك ، الضحكَ من تجمّد الحياة على هذا الشكل . فليس كل نقل اتباعاً . وإدراك ما يبدعه الآخرون على حقيقته وفي قوته وأعماقه هو بحد ذاته مشاركة في الابداع ومشاركة كبرى . وهو فوق ذلك استعدادٌ لتجاوز هذا الذي أبدعه الآخرون . فمن استطاع ان يضع نفسه موضع الآخرين تماماً وان يصل الى مستوى ما أبدعوه من افكار

انسانٌ وصل الى شأو من ينقل عنهم وفي وسعه ان يبـــدع فوق ما أبدعوا كما يبدعون هم فوق ما أبدعوا . ثم إن مهمـــة النقل الأصلية في الابداع ان تنقل الينا الوثبـــة التي أحدثت الابداع عند من ننقل عنهم وان تشيع بيننا الدفقات التي ادت الى الخلق والروح المبدعة التي تثوي وراء نتائج الابـــداع وآثاره . إن مهمتها ان تنقل الينا الوحي الثاوي وراء الأفكار لا الأفكار وحدها .

ولا يتم هذا كله إلا إذا لجأنا الى اسلوب صحيح في النقل . وهذا الاسلوب الصحيح هو الذي يعنينا الحديث عنه خاصة :

أسوأ انواع النقل ان ننقل دون ما خطة مرسومـة ، وان ننقل ما يقع بين أيدينا ، وان ينقل كل كاتب ما تهديه اليـــه مطالعاته المبعثرة الشتيتة . فمثل هذا النقل لن يطلعنا على «الكيان» الذي ننقل عنه كامـــلًا ، ولن يحررنا من التقاط فتات الموائد بدلاً من الرجوع الى الأصول . **والاسلوب الصحيح ان نبدأ بنقل أهم « كيانات الغرب » بكاملها . الاسلوب الصحيح اذا اردنا ان ننقل في مجال الفلسفة مثلا ، ان ننقـــل « كيان » الفلاسفة الفكري بكامله غير مجتزأ ، ونقدم كل مؤلفات كبارهم للجمهور ، غثها وسمينها . فننقـــل « كنت » بأسره أو « سبينوزا » بأسره ؛ أو ننقل الماركسية بكامل صورها وكتبها الأصلية ؛ أو ننقل الفن في شتى مجاليه ، كاملةً غير منقوصة . فخيرُ ما نفعل ان نلجأ الى الينابيع الأصلية فننقلها ؛ وخيرٌ ألف مرة ، في بادىء الأمر ، ان ننقل « كنت » كله بدلاً من ان ننقل ما كتبه بعضهم عن « كنت » ولو كان هذا الذي كتبه ييسّر فهم الفيلسوف .**

ولهذا الموقف الذي ندعو اليه مبررات كثيرة :

منها اننا إذ ننقل افكار الغرب بكاملها ، في مؤسساتها كاملة نقوم بجهد فكري هائل للوصول الى شأوها . إذ النقل يستلزم الفهم العميق .. وبذلك نتمكن من العـــلو فوقها والابداع إبداعاً يتجاوزها ..

ومنها ان من أخطر الأخطار التي نقع فيها حين ننقل نتفاً من الأفكار لا « كيانات » كاملة ، اننا نقدم فكرة مغلوطة عن المفكر الذي ننقل عنه ، فنظهره احياناً دون ما هو ، ونظهره احياناً اخرى فوق ما هو ، ونفهمه كما نريد وكلا الشيئين ضار . والذي نلجأ اليه غالباً هو ان نظهر المفكر فوق ما هو ، إذ نتخيّر خير ما عنده ، ونعرض لآلىء فكره ، دون ان نعرض ما الى جانب هذه اللآلىء من نقـائص كثيرة لا ينجو منها مفكر . وبهذا تتكوّن لدينا فكرة مغلوطة عن مفكري الغرب ، ونتصورهم خيراً مما هم ، ويزداد شعورنا بالانسحاق امام الغرب ، ويخيل الينا ان هنـــاك فارقاً هائلًا في المستوى بين بعض تراث الغرب وتراثنـــا ، بين بعض مفكري الغرب ومفكرينا . ولا ندرك هذه الحقيقة المنصفة وهي ان لدى كل مفكر في العالم ، مهما يكن شأوه ، بعض الافكار القليلة القوية التي تخلق سمعته وتجعل منه مبدعـاً ، الى جانب طائفة كبيرة من الافكار العادية او الضعيفة . وبنتيجة جهلنا هذه الحقيقة ، بسبب اطلاعنا على لآلىء المفكر وحسب ، نحقر مفكرينـــا وتراثنا ، حين لا نجد فيه الروعة فقط ، وإنما نجد فيه الى جانبها كثيراً من الدمامة والضعف ، وحين نظن ان هـذه الظاهرة مقصورة على تراثنا . وحق لنا ان نظن ما دمنا لم نر الفكر الغربي في جميع قسماته ، واقتصرنا على رؤية قسماته البديعة .

ومن هذه المبررات التي تجعلنا ندعو الى نقل « الكيانات » كاملة لا مجتزأة ، ان كثيراً من الاخطاء التي نقع فيها عندما نفكر ونناقش مسائل الفكر ونبدي حيالها آراء واجتهادات مختلفة ، معتمدين على افكار الغرب في رأينا ، ترجع الى اننا لا ندرك من وجهات الفكر الغربي إلا وجهة نظر وحيدة او وجهات نظر محدودة ، ولا ندرك المشكلة في جميع جوانبها وصورها لهذا ترانا طرائق شتيتة ، إذ كل واحد منا يناقش المشكلة من المنظار الذي اطلع عليه لدى المفكرين الغربيين والذي اطلع عليه دون غيره .. ومن هنا نكاد لا نتفق حول فكرة او حـول فهم مذهب معيّن سياسي او فني او فلسفي ، لأن كلاً منا ينطلق فيه حسب حظه من العلم ورتبته مـــن الاطلاع ، ولأن الاطلاع الشامل على اوجه المشكلات الكاملة غير ميسر لنا ما دمنا لا ننقل إلا فتاتاً ولا نقرأ الا فتاتاً .

يضاف الى هذا كله أن الموضوعات التي نتطرق لمعالجتهـــا تأخذ شكلاً غير الشكل الذي نعرفه ، اذا ما تيسّر لنا هـذا النقل لكيانات الفكر الغربي كاملة ولمؤسساته المبدعة . ان تخيّرنا للموضوعات لا يعود ، عند ذلك ، ذلك التخير الذي يمليه اننا لا نملك عن الفكر الغربي اي ثروة سابقة منظمة ، والذي يجعلنا نكتب في اي موضوع ، دون ما نظر الى مرحلته الزمنية ، فنكتب اليوم في موضوع كتب بالأمس ، غير آبهين لما كتب ، ناظرين الى موضوعنا كأنه موضوع جديد . اذ من شأن اسلوب

النقل الذي نتحدث عنه ان يجعل امامنا زاداً فكرياً نهائياً ومهاداً ادبياً سابقاً، على اساسه نبني وننشيء موضوعاتنا، وابتداء منه نصدر في افكارنا . فما نني نُنفي هذا الزاد وننسج حوله حتى نبلغ به شأواً من الابداع عالياً. أما ان نهبط حيناً ونعلو حينا ونصمت حينا ونتكلم حينا آخر ، وننقل عن الغرب تارة ولا ننقل تارة اخرى ، ونتحدث اليوم في موضوع حديثاً لا ندري ما مبرر انتقائه، ونأنف من مثل هذا الحديث في الغد فهذا كله تشتت فكري وبناء في فراغ ونسج حول شيء لا نواة له ولا لحمة . **ان نقطة البداية في كل ما يمكن ان يقدمه المؤلف للجمهور ان يقدم لهم شيئاً يتساءلون عنه بطبيعتهم او يخلق في نفوسهم التساؤل عنه. وأول مقوّمات التساؤل ان تكون هنالك ابحاث غدت راسخة وافكار تمّ نقلها كاملة، تغدو هي موضع بحث جديد مستحدث ، ومنطلق جدل ومشكلات جديدة ، ومجال حديث عنها من وجهات نظر مبتكرة وهكذا تستمر حركة الفكر متكاملة متعالية ، ويخلق تراث ويخلق كيان ..**

★

وبعد ، هذه هي سبيل الابداع، في رأينا ، فيما يتصل بموقفنا من الفكر الغربي ؛ وهذه هي الطريق الوحيدة التي يمكن ان تقودنا الى تجاوز هذا الفكر الغربي والوقوف منه موقفاً مبدعاً. ولئن كنا قد وقفنا عند هذه المشكلة، مشكلة النقل عن الغرب، هذه الوقفة الطويلة ، فلأنها اكبر مشكلة تواجهنا في المرحلة الحالية ، ولأن كل حديث عن الابداع لا يتعرض لها ، حديث زائف يتهرب من المشكلة الاصلية . أو لم نعرّف الابداع منذ البداية انه تلاؤم مع متطلبات الحياة الاجتماعية الجديدة وتحسس بالاتجاه الذي يتمخض عنه المجتمع ؟ أفلا يحدثنا كتّابنا فعلاً عن فتات من الفكر الغربي كان حرياً بهم الا يجتزئوها هذا الاجتزاء المصطنع ، وكان حرياً بهم ان يهدونا بدلاً منها عن بداية الطريق التي توصل اليها ؟ أمن الجائز ألا يكون هنالك ترتيب معيّن في عرض افكار الغرب على الجمهور ؟ وإن نعجب فنعجب حقاً ان يحدثنا كاتب عن فكرة في قمة الفكر الاوروبي، ونحن ما زلنا غير عالمين بعد ما في أودية هذا الفكر، وأن يصعد بنا الى شاهق الفلسفة ونحن لم نر قبل ذلك ، الدروب المؤدية الى هذا الشاهق !

إن قضية الكاتب ليست قضية إمتاع ومؤانسة . انها قضية تكمن وراءها مسؤولية جسيمة . ولا يجوز لشراعه ان يمخر دون ان يعرف اين المسير والى أين المصير . وان كانت مسؤولية الكاتب جسيمة في كل فترة من الفترات ،فهي في هذه الفترة من حياتنا ،حيث القلق والحيرة والتشتت ، اشد ما تكون خطراً وأثقل ما تكون عبئاً . ولئن حق لأمة استقر كيانها وقوي عودها ان تترف في البحث وتسير فيه على غير هدى ، فلا يحق هذا لامة ما يزال بنيانها ضعيفاً وما يزال جسمها هزيلاً غير قادر على ان يحوّل كل شيء ، حتى الفوضى والتشتت، لصالحه وفائدته..

★

على ان هذه المشكلة التي وقفنا عندها هذه الوقفة ليست الوحيدة التي تواجه مسألة الابداع الفكري عندنا . ولن يتسع المقام للحديث عن المشكلات الاخرى . إلا اننا نود ان نشير الى واحدة من هذه المشكلات ، لصلتها الوثيقة بالمسألة التي كنا بصدد الحديث عنها .

إن موقف كثير من مفكرينا من مشكلة النقل ذلك الموقف الذي نقدناه ، موقف من يعرض امام القراء المتفرجين قطعاً مَن صور مزوّقة ينقلها نقلاً غير واف ، إن ذلك الموقف قد جعل من أهم أسباب عقم الابداع عندنا عقم الابداع نفسه . وقد تعجبون من تحصيل الحاصل هذا ، غير انه عندنا ذو معنى جدير بالعناية : **ان انعدام الابداع ، بنتيجة وقوف اكثر مفكرينا تلك الوقفة الذليلة السطحية من الفكر الغربي ، أدى الى ظهور أدب هجين وفن هجين وفكر هجين ، بدأ جمهور المثقفين يألفونه ويسيغونه ، رغم انحرافه وضعفه ، حتى أوشك أن يصبح هذا الفكر الهجين مقياساً يحكمون عن طريقه على كل ابداع .** لقد عودهم مفكرونا ذلك الاسلوب من البحث والتفكير ، أسلوب الاجتزاء والنظرة العابرة السطحية ، فكاد يسري هذا الاسلوب الى نفوسهم ويكوّن مقاييسهم الفكرية ومحاكماتهم المنطقية على غراره وطرازه ، وكاد ينقلب الاسلوب الفاسد عندهم الى قاعدة ومبدأ ، وكاد ذلك الاسلوب من اجتزاء الفكر الغربي وإيراد النتف الفكرية المبعثرة، يصبح سنة تتبع، وقدوة تحتذى يتبارى فيها الكتّاب.

وهنا يكمن الخطر كل الخطر : ان يصبح الهجين هو الاصيل ، وان يغدو الطريق المنحرف هو الطريق الأمَم ، وان نتذرع بعد ذلك ، إذا ما نقد ناقد سلوكنا الذي نسلك،

باننا نلبي رغبة الجمهور وحاجة القراء .. ونحن الذين نخلق لدى الجمهور هذه الرغبة الملتوية ، بتجريعه إياها قطرة قطرة ، ونحن الذين نثنيه عن حاجته الحقيقية .. ومع ذلك ، فنحن نعتقد ان أكثرية الجمهور لم يحدث لديها بعد هذا الانحراف في تـــذوّق الفكر ، وإن كان قد أصاب طائفة قليلة من المثقفين . **ونرى على أية حال ان ارضاء الجمهور لا يكون أبدا بالهبوط الى مستواه ، وانما يكون برفعه الى المستوى الذي نريد واعطائه أحسن الأطعمة** . وواقع الجمهور يكذّب دوماً زعـــم من يتذرعون بضعفه فيما يقدمون من نتاج ضحل وافكار وتوجيه.. انه يثبت في شتى المناسبات انه قادر على إدراك الابداع الحقيقي وتفهم الوثبة الجديدة بحدسه وذوقه السليم ، وفطرته غـــير المشوبة . او لم تثبت الحياة السياسية في بلادنا ان فساد الجمهور راجع الى فساد القيادة ، لا العكس ، وانه إذا ما عرفت هذه القيادة حقيقة مطالبه استطاعت ان تُخرج منه الخير الكثير ، واستطاع هو ان يسيغ افكاراً يتخيّلها الزعماء في البداية عصية على فهمه وإدراكه ؟

ويروق لنا ان نقارن موقف المفكر من الجمهور بموقف الراشد من الطفل . إن الشائع لدى أكثر الناس ان الاطفال لا يسيغون الادب الرائع ، وينبغي ان نقدم لهم أنماطاً ضعيفة هزيلة من الادب والخيال والاساطير تناسب ، في زعمهـــم ، قواهم الغضة اليافعة . غير ان الوقائع تبـين ، كما بيّن « اناتول فرانس » في مؤلفه الشيّق « كتاب صديقي Le Livre De Mon Ami » ان الاطفال يحبون ذلك النوع من الادب الرخيص الذي يقال إنه صنع لهم خاصة وكُتب من أجلهم ، وأنهم ، على العكس ، يهتزون للأدب الرائع ، للفكر البديع المبدع . ومثلهم الشعب : إنه لا يطلب الغذاء الفكري الفقير . وإنّ زعم بعض المفكرين واتهامهم إياه بتقصيره عن إدراك الفكر المبـــدع الحق هو في الواقع ضرب من الاضفاء projection ! أعني أنهم يرون في الجمهور ما في نفوسهم من عجز وتقصير . **ان الجمهور عطش الى الابداع الحق ، وانه يعرف أن ينساق وراء من يهزّ أعماقه ويخاطبه بلغة الحياة ، بلغة الحقيقة ، بلغة الجد** . إن الجمهـور أيضاً يفهم أن الابداع يكون بالتلاؤم مع مطالب الحيـــاة الجديدة ، يكون بسلوك سبيل رصينة جدية في فهم مقتضيات المرحلة التاريخية التي تجتازها الامة. ما هو « ببغاء عقله في أذنيه » على حد تعبير شوقي . إنه يستطيع أن يرى ولكنه في حاجة الى من يعرض أمام عينيه ما يستحق أن يُرى ومـــا يأسر نظرته وانتباهه .

وكم يضلّ اولئك الذين يقدّمون للجمهور في الاذاعة وبعض المجلات ذلك النوع من الأدب الرخيص ، زاعمين انه لا يسيغ غيره . ولو سألوا هـــذا الجمهور لأجـــابهم أنه لا يسيغ شيئاً مما يدعون أنه موجّه اليه وإنه يعرف ان هـــذا هزل ، ولأجابهم بأن المحاولات المتكررة لأفساد ذوقه وفكره ما زالت عقيمة ولم تؤت بعدُ أكلها . ولكن ما نخشاه هو ان تثمر هذه المحاولات بعد لأي ، وان ينفُذ ذلك الأفيون المخدر إلى عقول الجمهور ، فيستسيغ ما عُوِّد عليه ، ويغدو عنده قاعدة واصلاً ، كما ذكرنا . وهنا تبرز مسئولية المفكرين من جديد وهنا يفهم كل منهم ان كلمةً يقولها ينبغي ألا يعدها كلمة تذهب مع الريح وعبثاً ما يلبث ان يُنسى ، وإنما هي كلمة توجّه وتغرس ، وقـــد يثمر غراسُها ، على شوئه ، فيغلُّ للمجتمع بلاءً وشراً ...

واخيراً ليس المبدع من يأتي بالمعجزات أو ينتظر هبوطها ؛ إنه من تحرر من قيود أسلوبه الذي ألفـه ، وانطلق من إسار عاداته الفكرية المستشرية ، وصارع ذاتـــه وأنانيته العقلية ، لينخرط في حياة أمته ومجتمعه ، يقبس منها وحيه ، ويدرك من خلالها حقيقة المهمة التي تنتظره ، ومطالب المرحلة التاريخية التي عليه ان يحمل عبء قيادتها وتوجيهها . إنه لا يفكر ليجتر افكاره ويستمتع بها ويتأملها تأملاً نرجسياً مرآوياً ، ولا ليبهر بها العقول الساذجة ، ولا يشوّه بفضلها ذوق الجمهور ويستدرجه الى الانحراف . إنه يعرف ان ينسلخ من إهاب كل هذه العادات الفكرية ، وان ينضو عنه صلابة موقفه وإلحاف نمط من التفكير سيطر عليه . إنه كائن حيّ يساير منطق الحياة ، منطق التكيّف المتجدد ؛ ويجعلُ من التكيف مع ما يُرهص به المجتمع ويتوق الى ظهوره شرعةَ إبداعه وموقد ابتكاره .

إن معنى العزم على أي شيء ، فكراً كان أو عمـــلاً ، هو كما يقول « لوسين Le Senne » ان يعي صاحبـــه ان الفعل الذي يصدر عنه لن يُدخل العدم ، بل يُدخـــل قيمةً من القيم .

دمشق — **عبد الله عبد الدائم**